من مناهل الايمان

عندما شعرَ محمدٌ رسولُ الله ، (ﷺ) ، أن ضغطَ قريش يكادُ يفقُدُهُ نَصرةَ عمِه أبي طالب قال : « يا عم ، والله لو وضعوا الشمسَ في يمين والقمرَ في يساري على أن أتركَ هذا الأمرَ ما تركتُه ، حتى يُظهرَهُ الله أو أهلكَ دونَه » .

بمثلِ هذا الايمانِ الوطيد جاهدَ سيدُ المجاهدين .
بمثلِ هذه العزيمةِ الصلبة صمدَ سيدُ الصامدين .
بمثلِ هذا التصميمِ الراسخ ناضلَ سيد المناضلين .

تعرّضَ وعترتُه الأخيارلأبشعِ ألوانِ العنتِ والتنكيلِ من أهلِ الباطلِ والضلال فما لانت له قناة ولا تزعزع له ايمان .

صبّوا عليه أقذعَ سفاهاتِهم وأطبقوا عليه بأشدِ مضايقاتِهم وتحدَوهُ واستفزوه ونبذوه من صفوفِهم ، فما نالوا من ثباتِ عزيمته .

حاولوا إرهابَه بالتهديدِ والوعيد ، منذرين بالويلِ والثبور وعظائمِ الأمور ، فما فتَّ باطلُهم من عضدِه ولا أوهنَ من صدقِ تصميمِه .

تلك سماتُ الرجلِ العظيم . . . العظيم في رفعتِه وكبرِ نفسِه وشجاعةِ قلبِه وسمو تضحيتِه ورحابةِ رؤيتِه ونفاذِ بصيرته ، ولعل سرَ عظمتِه يكمنُ في عمقِ ايمانِه بالرسالةِ السماويةِ التي أكرمَهُ الله تعالى بانزالِها عليه دونِ سائرِ الأنام . فحملَ مشعلَها وطافَ بها غيرَ هيّاب لا وجل ، يبشّرُ وينذر ، يدعو ويحذّر ، في قومٍ لم يجتمعوا يوماً كما اجتمعوا على محاربةِ الرسالةِ وصاحبِها .

كان النبيُ العربي الكريم يتيماً أمياً ، فقيّضَ الله له أن يُغيّرَ مجرى التاريخِ برسالتِه . فلا غروَ في القولِ إن عظمةَ الرجلِ من عظمةِ الرسالة .

وعظمةُ الرسالة شعّت فأضاءت ودبّت فعمّت ، فإذا العظمةُ ميسمُ حقبةٍ من تاريخ الانسانية حفلتْ بالفتوحاتِ الخارقة والتحولاتِ الثقافية والحضارية النادرة والتطوراتِ السياسيَة والآجتماعية والاقتصادية الباهرة . ذلك التزامنُ العجيب لتطوراتٍ مذهلة في فترة وجيزةٍ من عمرِ الزمن ، هل كان كلُه وليدَ صدفةٍ تاريخية ليس إلا ؟ ايَ صدفةٍ هي تلك التي باركتْ سحابةَ سنواتٍ قليلةٍ من التاريخِ بجيلٍ من العظماءِ من منزلةِ أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وخالد ابن الوليد والحسين بن علي وأبو عبيدة وغيرهم . ليست هي صدفةُ التاريخِ وإنما هي عظمةُ الاسلام .

عظمةُ الرسالة ، التي كانت منها عظمةُ الرسول ، (ﷺ) هي التي وضعتْ تاريخ الانسانيةِ على منعطفٍ جديد فتحَ آفاقَ العبقريةِ أمامَ الرجال . فلم يمضِ قرنٌ من الزمن حتى كان ابناءُ الدين الحنيف يطرقونَ أبوابَ الصينِ شرقاً وفرنسا غرباً بعد أن يسّر الله تعالى لهم نشرَ ألويةِ الرسالة الخالدة ، رسالةِ الاسلام ، فوق بقاعٍ ترامت أطرافُها في كل إتجاه إلى آفاقٍ ما كانت لتلمّ بأحلامِ أي بدويٍ في الحجاز ، وبين قومٍ تعددت جذورُهم وألسنهم وثقافاتُهم ، وما كان ليخطرَ ببالِ أحد أن البوتقةَ التي قُدّر لها أن تصهرَهم هي رسالةُ حقٍ تنطلقُ من قلبِ الصحراءِ العربية ، من أرضٍ قليلةِ الزرع .

كانت تلك عظمَة الرسالة ، وكان النبيُ العربيُ عظيماً في ايمانِه بها ، فهانتْ عندهُ كلُ الشدائدِ في الدعوةِ لها ، ورخصتْ عنده كُل التضحيات في الذودِ عنها ، وتضاءلت أمامه كلُ الصعابِ في السيرِ على هديِها .

وعندما بلغ اضطهادُ قريشٍ له ولصحبهِ مبلغاً يفوقُ طاقةَ البشرِ على الاحتمال ، ألهمه الله الهجرة .

غادر مكَة إلى يثرب في رحلةٍ كُتب لها أن تكونَ خاتمةَ صفحة من تاريخ البشرية وفاتحةَ صفحة جديدة . هاجر النبي العظيم ليجددَ العهدَ لا ليحنث به ، ليواصلَ حمل الأمانةِ لا ليتخلّى عنها ، ليحضّ على متابعةِ الجهادِ لا لينثنيَ عنه . هذا شأنُ من يقول : « لو وضعوا الشمسَ في يميني والقمرَ في يساري على أن أتركَ هذا الأمرَ ما تركتُه حتى يُظهرَه الله أو أهلكَ دونه » .

لم تكنِ الشمس لتغريَهُ لو تقلصتْ إلى حفنةٍ في يمينه ، لا ولم يكنِ القمرُ ليفتنَه لو تضاءلَ إلى سلعةٍ في يساره . لله ما أعظم إيمانَه وما أبلغَ كلامَه . هذا الكلامُ ليس كلامَ من يفكرُ في سلامتِه الذاتية ولا كان كلامَ من يريدُ أن يكونَ سبيلُ الرخاءِ الهيّنِ سبيله ، أو من يرى في نعماءِ الحياةِ أو هناءِ الدنيا مبتغاه . الرسالةُ السماوية التي آمن بها أخذت عليه مجامعَ قلبه وروحه وفكره ووجدانَه ، فهي عنده المنطلقُ وهي المبتغى ، هي الحافزُ هي الشاغلُ وهي المنتهى . فلا كان اطمئنانٌ ولا كانت سكينة ولا كانت سعادة ولا كانت نعمة إذا كان في هجرها جميعاً إعلاءٌ لشأنِ الإنسانِ والإنسانية في مجتمعٍ دبّ الفسادُ فيه وضاعتِ القيم وانتصَر الباطلُ فيه وسادَ الظلم . في هذا المفهوم كان سيُدنا محمد (ﷺ) ، في لغةِ عصرِنا الحاضر ، صاحب قضية ، هي قضيةُ الإنسانيةِ جمعاء التي تجلّت في الرسالةِ السماوية .

ونقف اليوم في ذكرى هجرتِهِ لنتأملَ في ما نحن عليه ونتبصَر فيما ينتظرُنا أويُرصدُ لنا .

نقف أمام أخوةٍ لنا في قطعةٍ غاليـة من لبنان يـرزحونَ تحت وطـأة احتلال عـدوٍ مجرمٍ غـاصب . نقف أمـامَ أهلِنا في الجنـوبِ والبقاعِ الغـربي وراشيا ، وهـم يعـانون أشـدَ الحيفِ من معتدٍ ظـالـم يحتلُ أرضنا وينكلُ بأصحابها ، يحاصرُ الفقراء في قراهم ويقطعُ عليهم رزقهم ويبدّدُ جنى عمرِهم ، ويمـارسُ عليهم أفظعَ أساليبِ العسفِ والظلم .

يريدُ العدوُ الاسرائيلي أن يقهـرَ إرادةَ شعبنا الأبي في المنـاطقِ المحتلة . يريدُ أن يُذلهم فيخضعوا لمشيئتِه ، يريدُ أن يسحقَ كرامتَهم ويستنزفَ عافيتَهم فيـرضخوا لأطمـاعِه . يـريدُ أن يسلبهم عنفـوانَهم ويخنقَ روحَ المقاومةِ والثورةِ في نفوسهم لتبقى أرضُنا الطيبـة لقمةً سـائغةً في فمِـه . يريـدُ أن يُشعلَ نـارَ الفتنِ الطائفيةِ والمذهبيةِ بيننا ليفتتَ وحدتنا ويبعثرَ صفوفَنا فيتبـددُ حقُنا وقضيتُنـا تحت أقدامِـه . يريـد أن يركعَ شعبُنا الباسل في الجنوبِ ليركعَ وراءه كلُ لبنان لسطوةِ عملائه وهيمنة أعوانه .

فهل تهونُ عزيمتُنا ؟

رواذُ الحضـارةِ البراقة التي تبسَطُ ظلالَهـا على مجرى الأحـداث في ثلاثـةِ أرباعِ الـدنيا ، رافعينَ شعـاراتِ الحريـة والديمقـراطيةِ والعـدالة وحقـوق الإنسان ، يقفـونَ اليوم متفـرجينَ أو منحازين لقـوةِ الاحتـلالِ بصورةٍ مبطنةٍ وبصـورةٍ سافـرةٍ أحيانـاً ، أوليسوا معنيين بمـا أصـابَ ويصيبُ إنسـاننـا المعـذبَ على يدِ غاصبٍ همجي يدنس ترابَ جنوبنا وبقاعِنا . وكأنما هم براء من وجودِ ذلك العدو أساساً أو من تنشئتِـه ورعايتِه وحمايتِه وتنميةِ شوكتِه وشحذِ مخالبِه الفتاكة لينشبَها من ثم في جسمِ وطنِنا الغض .

فهل تخُور لنا عزيمة ؟ هل يهتزُ لنا ايمان ؟ هل تهونُ لنا كرامة ؟
علينا بقبسٍ من سيرةِ الرسول ، نستلهمُها لنقول : كلا ثم ألف كلا .
لا هناء لنا في يومِنا العابر لو فرّطنا بإشراقةِ من غدنا الأبعد .
لا خلاص لنا من حاضرنا الرديء إذا وهبنا العتاة الغاصبينَ مستقبلَ أولادنا .
لا كرامة لنا في ديارِنا إذا أورثنا الذلَ والهوانَ لإحفادِنا .
لا ، لن يكونَ مستقبلُ أولادِنا وأحفادِنا ثمناً بخسـاً نبذلُه لإنقاذِ أجسادِنا .

نستلهمُ ذكرى الهجرةِ وسيـرةَ صاحبهـا ، (ﷺ) ، لنجددَ العهـدَ فنقول : لا ، لن تكـون طريقُ الخلاصِ الرخيصِ طريقَنا ، لن يكـون سيلُ الـراحةِ الآنيـةِ سبيلنا ، لن يكـونَ سرابُ الـوعودِ الجـوفاءِ ملاذنا ما دامت لنا قضيةٌ نؤمن بها . وما دامت لنا كرامةٌ نعضُ بالنواجذِ عليها ، وما دامتْ لنا حقوقٌ نتشبثُ بأهدابِها .

إنسانُنا على الأرض المغتصبة : في الجنوب ، في البقاع الغربي ، في راشيا ينشدُ الحريةَ من نير احتلالٍ غاشم . وانسانُنا المنكوب في كل مكان : في بيروت ، في الضاحية الجنوبية ، في البقاع ، في الشمال ، في الجبل ، في إقليم الخروب . وفي الجنوب ينشدُ الحريةَ من حالِ المأساةِ التي يتخبطُ فيها وإنما

أيضاً من ربقةِ دونية متينة . لا للحرمان ، لا للجهل ، لا للتخلف ، لا للحيف ، وكلنا للوطن . الكل لوطن واحد موحد تسودهُ المساواة والعدالة في ظلِ نظام ديمقراطي صحيح يزخرُ بأسبابِ التفاهم والوئام والتقدمِ والاستقرار .

قضيتنا هي بكلِ بساطة قضيةُ الانسانِ في هذا الوطن . انها قضيةُ الحريةِ والعدالةِ والمساواةِ والديمقراطية ، هي قضيةُ حقوقِ الانسانِ على هذه الارض الطيبة التي مزقتها يدُ التسلط والفرقةِ والتمييز .

كم من الصفحاتِ سُوِّدت في الحديث عن حقوقٍ اسلامية ومطالبَ وطنية . وكم من الكلامِ هُدرَ في التبشير بقضية طائفية . يقيناً لم يكن ذلك تعبيراً عن جوهر قضية بقدر ما كان تعبيراً عن موقع صاحب تلك القضية إذ كان يتطلع إليها من زاوية موقعه فيها . يتطلع إلى قضيةِ الحرية من موقعِ من افتقدَ الحرية ، ويتطلعُ إلى قضية المساواة من موقع من حالت الحواجزُ الطائفيةُ بينه وبين نعمةِ المساواة ، ويتطلعُ إلى قضيةِ العدالة من موقع الشاكِي من تفاوتِ الأحوال في مجتمعات وطنهِ الممزق ، وما يتطلع إلى قضية الديمقراطية من موقع الذي لم يَخبر من الديمقراطية إلا قشرتَها . أما ما يطبعُ الديمقراطية من قيم مجتمعية وإنسانية وما تفرزُ الديمقراطية من ثمرات الخيرِ والنماءِ والاستقرار، فلم يعثرْ منها في تجربته على ما ينقع غليله .

فكما الإسلامُ رسالةٌ إنسانية، فقضيتُنا الوطنيةُ هي قضيةُ الانسانِ في وطنه . أجل ، قضيتنا هي قضية الانسانِ الكريمِ في هذا الوطن الصغير . قضيةُ حقوقِ الانسان كما تُقرُها الشرعة الدولية لحقوقِ الانسان . فهل في هذا من الطائفية شيء ؟ هل في هذا شيء من التجنّي أو التعدي على أحد أو على فئة ؟

وإذا كانت هذه قضيتُنا ، فهل يجوزُ لنا التخلي عنها أو التهاونُ في شأنها ؟

علينا بقبسٍ من سيرةِ الرسول (ﷺ) في ذكرى الهجرة المجيدة . نستلهمها فنقول: لا ثم ألف لا . إننا اليوم على منعطف خطير ، نعيش مرحلةً من مراحل تقرير المصير ، مصير أجيالٍ طالعة وأجيالٍ مقبلة . فلا كرامة لمن يسلك دربَ السلامِ العابرِ على حسابِ السلام الدائم ، ولا هناء لمن يؤثر طريقَ البناءِ على حساب الحياة ، وما معنى الحياةِ من غير كرامة ؟

ولنا في سيرةِ الرسول هداية .

كلمة في ذكرى الهجرة ، ١٩٨٤ .